

الغيرية في رواية (أرخيبيل الذباب لبشير مفتي) مقارنة ثقافية
Otherness in the Novel (Archipelago of Flies by Bachir Mufti) Cultural
Approach

* ط.د. رميسة عريفي¹ / أ.د. حاتم كعب²
Roumaissa Arifi¹ / Hatem Kab²

مخبر تعليمية اللغة العربية والنص الأدبي في النظام التعليمي الجزائري الواقع والمأمول
جامعة العربي بن مهيدي - أم البواقي (الجزائر).

Larbi Ben M'hidi University of Oum El Bouaghi (Algeria)

roumaissaarifi000@gmail.com¹ / kab.hatem@gmail.com²

تاريخ النشر: 2024/12/02	تاريخ القبول: 2024/08/27	تاريخ الإرسال: 2024/03/21
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

تعالج هذه الورقة البحثية الموسومة "الغيرية في رواية أرخبيل الذباب لبشير مفتي مقارنة ثقافية" أحد القضايا الأدبية البارزة على السطح والمتمثلة في الغيرية، أو ما اصطلح عليه بـ "الآخر"، وهي مقولة جوهرية في الخطابات الأدبية المعاصرة. والآخر هو المختلف دينيا أو عرقيا أو لغويا أو حضاريا، وإذا أردنا أن نحدد كنهه، فلا بد أن نعرف أولا أن هناك علاقة تلازمية بين مفهوم الأنا ومفهوم الآخر، فكلاهما مكمل لنظيره، وبالعودة للرواية الجزائرية -العربية- نجدها قد تمثلت هذه المقولة تمثلا بارزا منذ نشأتها الأولى وبخاصة عند روادها، وتبعها لما تقدم يمكن اعتبار رواية "أرخيبيل الذباب" لبشير مفتي من الروايات العربية التي عالجت الغيرية، من خلال تمثيلها للآخر المختلف وما يحمله من صور ودلالات، وهذا ما تنو الدراسة الكشف عنه، إذ تسعى إلى تتبع هذه الإشكالية من خلال إبراز صورة الآخر ورسم ملامحه، لتحاول الإجابة عن سؤال مفصلي هو: كيف صورت الأنا/ الآخر ضمن رواية أرخبيل الذباب لبشير مفتي، وبخاصة في إطار معركة الهوية؟.

الكلمات المفتاح: غيرية، أنا، آخر، صورلوجيا، رواية، مقارنة ثقافية.

Abstract :

This research entitled "Otherness in the Novel Archipelago of Flies by Bachir Mufti" will focus on the cultural approach "Otherness", what is termed

* رميسة عريفي: roumaissaarifi000@gmail.com

"Other", which is a crucial saying in contemporary literary speeches, and one that has stimulated the interest of many researchers and academics. The other is the one who is religiously, ideologically, ethnically, linguistically or culturally different. If we want to precise the sense of the other, we must first know that there is a correlative relationship between the concept of the ego and the concept of the other, since one completes the other. As regards the Algerian-Arabic novel, this saying has featured prominently since its inception, particularly among its pioneers. In the light of the above, we can consider the novel "Archipelago of Flies" by Bachir Mufti, one among the Arab novels that has perfectly treated otherness, through representing the negative/exploited other with its images and significations. And that's what this study aims to reveal, as it seeks following this saying through showing the image of the other and drawing its features, in order to try answering an extremely important question which is how the ego/the other have been exposed within the novel "Archipelago of Flies" by Bachir Mufti, and especially in the field of identity battle?.

Keywords : otherness, ego, other, photology, novel, cultural approach.



مقدمة:

يعتبر الآخر (الغريبة) من أهم القضايا الجوهرية التي تناولتها الرواية العربية، حيث نال قسطا وافرا من اهتمام العديد من الروائيين العرب، وهو يختلف من الناحية الدينية أو الايديولوجية أو العرقية أو اللغوية أو الحضارية، وإذا أردنا أن نحدد كنهه فلا بد أن نعرف أولا أن هناك علاقة تلازمية بين مفهوم الأنا ومفهوم الآخر، فكلاهما مكمل لنظيره، كما أن طبيعة الحياة تفرض وجود هذه الثنائية (الأنا والآخر)، وتعتبر الرواية النموذج الأدبي الأبرز لاحتواء هكذا مواضيع، وهي الأكثر قدرة على استيعاب موضوعات الحياة وتصويرها بدقة. وتعد الرواية الجزائرية أهم ما جسدت ثنائية الأنا والآخر وما تحمله هذه الأنا من صور نمطية عن الآخر، ويندرج ذلك ضمن ما يسمى بدراسة الصورة الأدبية أو الصورولوجيا (Imagologie) باعتبارها فرعا من فروع الأدب المقارن والتي شهدت تطورا ملحوظا في الآونة الأخيرة، فهي تهدف إلى دراسة صورة بلد

أجنبي في أعمال أدبية لدى شعوب وبلدان أخرى، سواء كانت هذه الصورة إيجابية تنشر التسامح والمحبة، أم سلبية تنشر العداوة والكراهية بين المجتمعات.

من هنا ونتيجة انشغالنا بقراءة بعض الأعمال الروائية الجزائرية جاءت فكرة دراسة موضوع الآخر أو الغيرية في الرواية الجزائرية المعاصرة كونه موضوعا كثيرا ما تجلى لدى الكتاب الجزائريين أمثال: الطاهر وطار في روايته اللالز ورشيد بوجدر في روايته المراث، وإبراهيم سعدي في روايته المرفوضون وواسيني الأعرج في رائعته أصابع لوليتا... إلخ، فقد تضمنت نصوصهم مشاهد تصوّر العلاقة بين الأنا والآخر. غير أن اختيارنا وقع على الكاتب الجزائري "بشير مفتي" نظرا لكون أعماله تتواءم وهدف البحث، الذي جاء موسوما بـ "الغيرية في رواية أرخبيل الذباب مقارنة ثقافية"، وقد خصصنا بحثنا هذا لمدونته "أرخيبيل الذباب" لأنها تعد أحد أهم الأعمال الإبداعية للروائي التي جسدت صورة الآخر المختلف.

هذا ما يقودنا إلى طرح عدة تساؤلات أهمها: ما المقصود بالأنا؟ ما مفهوم الآخر؟ ما هي الصورة التي رسمها بشير مفتي عن الفرنسي في رواية "أرخيبيل الذباب"؟ وما هي العلاقة القائمة بين الأنا والآخر في المدونة محل الدراسة؟.

وللإجابة عن الأسئلة المطروحة اعتمدنا على آليات النقد الثقافي باعتباره من أهم طرائق معالجة وتحليل النصوص التي أفرزتها مرحلة ما بعد الحداثة في مجال الأدب والنقد، وقد حاولنا من خلاله رصد موقف الروائي من الآخر الفرنسي، كما ساعدنا في تحديد ملامح صورة الفرنسي في رواية "أرخيبيل الذباب".

قبل اللجوء إلى عوالم الرواية والغوص في تفاصيلها واستنباط تجليات الآخر فيها يجدر بنا الوقوف في البدء عند المفاهيم الاصطلاحية للأنا والآخر وشرحها فيما يأتي:

أولا- مفهوم الأنا:

يعد مصطلح الأنا من أهم المصطلحات التي نالت عناية كبيرة من طرف العديد من المفكرين والباحثين، حيث أصبح قضية جوهرية في الكثير من الدراسات الأدبية والنقدية والفلسفية والفكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية، لكن يصعب تقديم تعريف دقيق له، لأنه متداخل مع العديد من العلوم الإنسانية، مثل: علم الاجتماع، علم النفس... إلخ، والمتتبع لهذا المصطلح يلحظ أن لديه مرادفات كثيرة تقابله (الذات / الهو / الشخص).

يرى الفيلسوف يوهان غوتليب فيشته (Johann gottlieb fichte)* أن الأنا ينبغي أن يكون منعزلا عن الفردية، بل ويراه أنا إنسانيا مرتبطا بالجماعة، وشاملا الجنس البشري كله، ويأتي أحمد ياسين السلياني في حديثه عن هذا الفيلسوف وتعريفه للأنا، قائلا: "ولكنه هذه المرة لا يقصد به أنا الفرد، بل الأنا خالصا من كل فردية، فإن الفرديات المختلفة ليست إلا لحظات متأخرة لهذا الأنا الخالص، إن هذا الأنا جنس

عام يشمل الجنس البشري كله، إنه الأنا الإنساني في وحدته الأصلية الكبرى، أي الأنا الجماعية المصورة لذوات هذه الجماعة"¹

أما عمرو عبد العلي علام فيعرفها في كتابه: الأنا والآخر (الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر) بقوله: "الأنا هي الذات وما تشتمل عليه من خصائص وسبب نفسية عقلية أو مزاجية، ودفاعية، من أفكار وطموحات، وصراعات، أو توترات، وحاجات فيزيولوجية، وحاجات نفسية، كالحاجة للحب، والالتقاء أو الأمن، وتحقيق الذات، وغيرها من الحاجات والدوافع"²؛ نفهم من هذا القول أن الأنا أو الذات مرتبطة بخصائص أو مظاهر داخلية متعلقة بالوعي والتفكير... وأخرى خارجية متعلقة بالمظهر واللباس...

ثانيا- مفهوم الآخر:

يطلق على مصطلح الآخر بعدة تسميات منها: الغير، اللاأنا، المغاير، المختلف...الخ، وهو من منظور ميشال فوكو (Michel foucault) "اللامفكر فيه في الفكر نفسه، أو هو الهامشي الذي يستبعده المركز، أو هو الماضي الذي يقصيه الحاضر، لكنه أيضا جوهري بالنسبة لكنينة الخطاب الذي يستبعده، فنحن لا نعرف الحاضر دون الماضي ولا نعرف الذات دون الآخر، أما على مستوى الخطاب فالآخر هو معالم الانقطاع والفضل الذي يحاول التاريخ استبعادها ليؤكد استمراره"³؛ معنى ذلك أن الآخر لا يمكن أن يعرف نفسه إلا من خلال الذات (الأنا)، وهو عنصر أساسي في النصوص الإبداعية وبالتالي لا يمكن الاستغناء عنه.

أما سعيد حسون حسين فيرى في مقاله الذي عنوانه بـ: "صورة الآخر في الرواية العراقية بعد عام 2003م (دراسة في الأدب المقارن)" أن الآخر شكل جزءا ليس صغيرا من روافد الدراسات الأدبية المقارنة الحديثة وفروعها، بتياراتها المعروفة، التي ما انفكت تتطور وتتوالد، وذلك بسبب تصاعد التيارات الأدبية وتطور القراءات النقدية عموما. لقد حدد الأدب المقارن منذ نشأته مع مطلع القرن السابع عشر جملة من الحقول والميادين لاهتماماته، في ضوء مدارسه المعروفة: الفرنسية، والأمريكية والماركسية، وبهذا فإن مختلف الأفكار والشخصيات (واقعية كانت أم متخيلة) هي جزء لا يتجزأ من صورة الآخر، هذه الأخيرة التي باتت تشغل حيزا في آداب الشعوب⁴

ما يمكن استخلاصه أن مصطلحي "الأنا والآخر" يحمل كل واحد منهما مدلولاً خاصاً به، لكنهما متلازمان ومترابطان، إذ لا يمكن للأنا أن تعرف نفسها إلا من خلال الآخر، وكذلك لا يمكن للآخر أن يعرف نفسه إلا من خلال الأنا، لأن كل طرف منهما يستدعي بالضرورة حضور الطرف الآخر، أي الأنا لا تكتمل إلا بوجود الآخر والعكس صحيح.

ثالثا- علاقة الصورة بالرواية:

تعتبر الرواية من أكثر الفنون السردية قدرة على نقل صور الشعوب (صورة الآخر)، إذ نستطيع أن نعيش بفضلها مشاهد حية من الواقع الممتزج بالأوهام حول الأنا والآخر، نظرا لما تتوفر عليه من طاقات تعبيرية تجعلها قادرة على استيعاب مختلف أشكال الخطابات الأخرى لتقدم رؤية تأويلية عن الوجود الإنساني، من خلال رسم فضاءات تخيلية تتعدد فواعلها، لتخلق عالما الخاص الذي يتموضع بشكل مواز للعالم الخارجي، ويماز عنه بوصفه ينطلق من الذات ليتجسد لغويا، فالصورة الروائية "نقل لغوي لمعطيات الواقع، وهي تقليد وتشكيل وتركيب وتنظيم في وحدة، وهي هيئة وشكل ونوع وصفة، وهي ذات مظهر عقلي ووظيفة تمثيلية، ثرية في قوالبها ثراء فنون الرسم والحفر والتصوير الشمسي، موعلة في امتداداتها إيغال الرموز والصور التفسيرية والاجتماعية والأنثروبولوجية، والإثنية، جمالية في وظائفها مثلما هي سائر صور البلاغة ومحسناتها، ثم هي حسية، وقبل كل ذلك، هي إفراز خيالي"⁵؛ معنى ذلك أن الصورة الروائية تجسيد جمالي وفني سواء على صعيد اللغة أو التعبير ولها قواعد وأسس جمالية تتمثل في البلاغة والمحسنات...، فهي جامعة لكل هذه العناصر الفنية التي تجعل من الرواية رواية.

إضافة إلى الشهرة التي نالتها الرواية، والزخم الذي اكتسبته وسط جمهور المتلقين، حيث جعل منها ميدانا مهما للأعمال النقدية بمختلف اتجاهاتها، فأقبل النقاد والدارسون على هذا الجنس الأدبي، ينهلون منه موضوعاتهم، ومن بين هؤلاء نجد المقارنين الذين يبحثون عن صورة الشعوب وتجلياتها في هذه الأعمال الأدبية، وعن فرص التعايش والتواصل بين الشعوب المختلفة، لذلك فإن الأعمال الأدبية عموما والروائية بصفة خاصة، مجالا تظهر من خلاله صورة الأنا والآخر بشكل جلي "إن مواجهة الذات لحضارة الآخر مواجهة تاريخية حتمية لكونها جزءا أساسيا من المواجهات المستمرة بين الشعوب بثقافتها وحضاراتها المختلفة. والذات هنا هي الفرد المبدع بما يحمله من تميز وبما يشترك فيه من خصائص وموروثات مع غيره من المنتمين إلى جنسه وثقافته. وفي تاريخ الآداب العالمية الكثير من الأعمال التي تُسجل تفاعلا ذاتيا بين الفرد وبين ثقافات الشعوب الأخرى سواء اتخذ ذلك التفاعل هيئة التأثير والتأثير، أو انبثق في شكل مواقف وتأملات"⁶؛ هذا يعني أن الروائي وهو يكتب رواياته وأعماله الفنية نجده يواجه ثقافات وحضارات الشعوب المختلفة عنه في كثير من الأمور، فيتفاعل معها إما تأثرا أو تأثيرا أو يُبدي مواقفها إيجابا أو سلبا، فيتكون صورا لهذه الشعوب ثم يصوغها في مخيلته. ومن أمثلة الدراسات التي اتجهت إلى دراسة الأجنبي في المتون الأدبية العربية نذكر على سبيل المثال: عبد الحميد حنون: صورة الفرنسي في الرواية المغربية، جمال مبارك: الغرب في الرواية العربية، أحراز عبد الوحيد: صورة الغرب في الرواية العربية، شهرة بلغول: صورة اليهودي في الرواية المغاربية المعاصرة...الخ.

وتعتبر الصورة المنفذ الذي يُقرب فيه الروائي عمله إلى القارئ، إذ بخياله وتصوّره ينظر إلى العمل الفني والجمالي الذي احتلّ مكانا في الرواية، لذا تغدو الصورة في العمل الإبداعي (الرواية) هي صورة فنية

وجالية وإنسانية تقوم أساسا على عنصر التخيل، وبالتالي فهي تعتمد الإنزياح عن معايير العلمية والتسببية والقواعد الوثوقية، كما تميل إلى التحرر من قيود المناهج النقدية الصارمة ذات النزعة الوصفية التجريدية والموضوعية⁷

إذن، فالعلاقة بين "الصورة" و"الرواية" علاقة تكاملية، لأنه لن يكتمل العمل الروائي إلا من خلال لجوء الكاتب إلى إلباس الأحداث الروائية لبوس الصورة التخيلية مما يزيد في استيطان الجمال، وهذا يعني أن جمالية الصورة تتحقق وفق شروط نصية وغير نصية تتركز على قدرة الأديب وعلى طاقة النص، وتتركز أيضا على مدى تفاعل القارئ الذي يمارس مهمة ذهنية وتفكك الصور الروائية بمختلف أبعادها الجمالية والتصويرية وذلك بهدف تأويلها جاليا وبناء دلالاتها التخيلية⁸

ويمكن أن نميز ضمن أبحاث "الصورلوجيا" بين ثلاث مواقف أساسية أو نماذج رمزية كما يسميها دانييل هنري باجو (D.h.pageaux)، وذلك في إطار تحديد العلاقة بين الأنا والآخر، وهي: (الهوس، الرهاب، التسامح)**

رابعا: الآخر الفرنسي المستغل من خلال مدونة "أرخيبيل الذباب":

يدخل في صميم اهتمامات الدراسات الثقافية، الكشف عن الكيفية التي يقدم بها الأديب (الروائي بخاصة) صورة الآخر المختلف عرقيا ودينيا وايدولوجيا وحضاريا ولسانيا، وهو من صميم البحث عن الأنساق الثقافية المضمرة ضمن هذا النوع من الخطاب، وبالعودة إلى الرواية الجزائرية نجد قد عالج تيمة العلاقة بين (الأنا) و(الآخر)، ويشهد بذلك المتن الروائي الجزائري وبخاصة عند بشير مفتي، حيث عمد مفتي في الكثير من رواياته إلى رسم صورة الآخر السليبي المحتل والمستغل تبعا لما يعبر عن قناعاته وطبيعته رؤيته لهذا الآخر، وبناءً على ذلك سنركز في تحليلنا هذا على مخطط دانييل هنري باجو لدراسة الصورة انطلاقا من المواقف الأساسية الثلاثة المذكورة آنفا (الهوس، الرهاب، التسامح).

لقد ارتبطت مسألة الغيرية (الآخر) عند الأدباء بطبيعة الحياة السياسية والتاريخية والدينية واللغوية، التي عرفت الجزائر عبر حقبة زمنية مترامية الأطراف، فحلقات الصراع الطويلة التي عاشتها الجزائر ضد الدخلاء والغزاة، جعلت النظرة إلى الآخر نظرة صراع وعداء ومقاومة، ويحضر أيضا في نص مفتي الموسوم "أرخيبيل الذباب" بصورة سلبية انتقاصية، إذ نلاحظ أن الرواية قد جسدت لنا شخصيات جزائرية مثقفة عانت الاضطهاد والتمهيش في وطنها الأم سنوات التسعينات (أي فترة العشرية السوداء) نتيجة الأوضاع المأساوية والمزرية التي مرت بها البلاد آنذاك، أدى بها كل ذلك إلى الهجرة علما تجدد الراحة النفسية وسعادة الكتابة بكل حرية، لكنها انصدمت بواقع مريب كسر طموحها، يرجع ذلك إلى إحساسها بالغربة لأنّ الاغتراب في حقيقة الأمر سواء كان اختياريا أو إجباريا فإنه يُضعف الإنسان وينحله ويهزّ كيانه هزّا عنيفا، إذ يظلّ ملاحقا له طيلة فقدانه للأهل والوطن، فهو حالة شعورية دائمة قد يتناساها الإنسان لكنها تطفو دائما على

السّطح، لأنّ فقدان المكان كحيز وجودي له مكونات نفسية لا يمكن أن يُعوّضه مكان آخر حتى ولو كان أحسن منه اجتماعيا، لأنّ الحنين ولوارج الشوق تظلّ تأمّر الإنسان إلى تربته وأصله وهذا ديدن البشر وسبب هذا الاعتزّاب (السياسي) يرجع إلى غياب العدالة الاجتماعية في البلد هذا من جهة، ومن جهة أخرى إحساسها بالقهر والضياع والتهميش في البلد الأجنبي لأنها أصبحت تعيش الجحيم بين حياتين حجم الكتابة وغربة الحياة، مما أدخل بطل الرواية "محمود البراني" في أزمة نفسية خطيرة، أفقدته الشغف وحبّ القراءة والكتابة لأنه علم أنّ العالم الغربي لا يؤمن بثقافة الشرق بل يسعى إلى الخط من قيمتها الأمر الذي جعله يستسلم ويتنعد كل البعد عن الكتابة التي كانت هدفه الأول والأخير إلى الاشتغال في أماكن غير لائقة به والتي لم تخطأ أبدا لا على باله ولا على خياله.

فالصورة التي تحملها الأنا عن الآخر يمكن أن نطلق عليها بالصورة النمطية "وهي صورة اختزالية تجسد صورة الآخر في ذهن الأنا، وهي في الأغلب صورة سالبة وكريهة ومركزة"⁹، وبالعودة إلى روايتنا نلمس هذه الصورة النمطية في تصوير صورة الآخر والممثل في شخصية مادلين المرأة الفرنسية المحتلة، المستغلة، اللعوب، صاحبة مكتبة عمومية، والتي مثلت في البداية وقبل كل شيء الحزن الدافئ والمساعد للأنا الممثل في شخصية محمود البراني، الرجل المثقف الشغوف بقراءة الكتب، والذي سافر إلى إسبانيا نتيجة الصراع العنيف الذي تشهده الجزائر في تلك الحقبة، حيث لاقى كل أنواع المعاناة (معاناة الغربة من جهة ومعاناة الحب من جهة أخرى)، وهناك تعرف على السيدة مادلين، هذه الأخيرة التي اكتشفت أنه يملك موهبة المطالعة، فطلبت منه أن يعمل في مكتبها رغم نظرتها المزدنية لثقافة الشرق، وتزداد الصورة وضوحا وجلاء بتعاطفها معه، إذ منذ البدء انطلقت العلاقة بينها انطلاقا حسنة، إذ تربطها في البداية علاقة ودّ ومحبة وتفاهم، وتظهر تلك العلاقة الحميمة في قول البراني: "أعطيتني كل ما كنت أطلع إليه من عناوين وما أود قراءته من كتب، كانت تسمح لي أن آخذ ما يطيب لي وأمضي ساعات الليل سارحا بخيالي في دنيا الكتاب العجيبة وحيات الخيال المثيرة... حتى جاء ذلك اليوم الذي طلبت مني فيه مادلين أن أعمل معها بالمكتبة فهي بحاجة إلى مساعدة شخص يحب الكتب ليكون تواصل مع جمهور القراء تواصلًا حميًا"¹⁰؛ نفهم من هذا القول أن البراني يعترف بالمعاملة الحسنة من طرف المرأة الأجنبية ظنا منه أنها ستنسّيه في ماضيه الأليم، ولعله سيعرف وجه الشمس في ذلك البلد الأجنبي.

وما ينبغي الإشارة إليه أن البراني رغم نبل أخلاقه وثقافته الواسعة التي اشتهر بها في وطنه، إلا أنه أحس بالقهر والضياع، وتزايد معاناته وآلامه حين فقد قيمة المثقف والمبدع/ الكاتب غارقا في جحيم الغربة، أدى به كل ذلك إلى اشتغاله في إحدى البارات الباريسية، والتي لا يقصدها في الغالب إلا المهمومون والمغربون في ذواتهم، والذين ضاقت بهم الحياة ولم يستطيعوا إيجاد جسر للتواصل مع الواقع، يقول محمود البراني معبرا عن ألم الإنسحاق الذاتي: "كنت أعمل بإحدى البارات الباريسية كنادل يوزع المشروبات على زبائنه وكنت أشعر

بضيق من ذلك العالم الكئيب الذي يأتيه كل من فقد عمله أو تركته زوجته أو عاهرة تباع جسدها بأثمان بخسة، ولا أخفي أن ذلك العالم من جهة أخرى مصدر عزاء، فالغالبية كانت تأتي لتنسى آلامها وتحكي قصصها التعيسة، فكنتُ أخفقُ عن نفسي بذلك من وحشة الغربة ومن ذكرى فاطمة¹¹؛ فمن خلال هذا القول يتبين لنا أن محمود البراني يعيش في عالم مفروض عليه نظرا لظروفه الاجتماعية المزرية والتي تُجبره على القيام بأسوء وأقبح الأعمال بالنسبة لمثقف وكاتب ينسحق في خماره لتضيع فيها سنوات عمره في صوت كؤوسها، وترنح مرتاديا.

ويواصل الكاتب سرد الأحداث حيث تظهر أيضا العلاقة الودية بين صاحبة المكتبة وحسن معاملتها للبراني، معترفا هذا الأخير بقوله: "قلْتُ لمادلين نعم بعد أسبوع من التفكير فصارت لي علاقة قوية بالكاتب، ثم سرعان ما تحولت مادلين هي الأخرى إلى جزء هام من حياتي رغم نظرتها المزرية لعالم المهاجرين، إلا أنها أظهرت نحو ميولات متنوعة بين العاطفة والرافة والدهشة من طاقتي القوية على التهام كل ذلك العدد الكبير من الكتب.."¹²؛ إذ يتبين لنا أن العلاقة القائمة بين مادلين (المرأة الأجنبية) والبراني (الرجل الشرقي) هي علاقة صداقة ووفاء وعطاء، فالبراني جاء من الجزائر البلد الذي كان يعاني فيه الاضطهاد ثم قصد ذلك البلد الغربي من أجل تحسين ظروفه المعيشية والأوضاع المساوية التي مر بها، أين وجد المرأة الفرنسية التي أبدت عواطفها نحوه عندما علمت أنه شغوف بالقراءة والمطالعة وحبه الكبير للعلم والثقافة، فازدادت ثقته بها وظن أنها ستفتح له أبواب الأمل، ويعود من جديد إلى عالم الكتابة التي حرم منها في وطنه سنوات التسعينات.

كما تتجسد تلك العلاقة المحمية التي تجمع بين الطرفين من خلال النموذج الذي يذكره البراني: "مادلين رأْتُ في كاتبها المفضل، بل تصورتني عبقريا في طور الاختار وذات يوم سأكتب أعمالا مدهشة مثلما حدث لنييتشه وكافكا، وكل سلبتي ما هي إلا فلسفة عدمية يفرضها عقل الفلاسفة وتقبلها روحهم العلوية.."¹³؛ إذن فالعلاقة التي تجمع بين البراني / الشرق، ومادلين / الغرب هي علاقة ود وتعاطف وتفاهم، وهنا نلمس العلاقة التواصلية بين الشاب الجزائري والمرأة الفرنسية، فالكاتب تحدث عن هاتين الشخصيتين في البداية إذ تربطها علاقة حميمة، وكل طرف منهما يكنّ للطرف الآخر الحب والعطاء والوفاء.

لكن تختم وقائع هذه الحكاية في تشكيلها لصورة الآخر بنهاية مأساوية مخزية وخيبة أمل تعرض لها البراني خاصة بعد أن فكر في الكتابة، وبدأ كتابة أشياء كثيرة، اكتشف حقيقة مفادها أن مادلين لم تعترف بكتاباته، ولم تقتنع بحججه عندما علمت أنه غير قادر على الكتابة، بل ورفضت ثقافته رفضا مطلقا في اعتقادها أن الشرقي لا يمتلك الثقافة والعلم والمعرفة مما تولدت لديها نظرة احتقار ونزدراء تجاهه وهذا ما جاء على لسان البراني: "مادلين أحببني بعدها وأنستني دنياي القديمة ودفعني لأن أفكر بالفعل في الكتابة... لكن في ما بعد عرفت أنني لا أملك أي موهبة حقيقية وأن القراءة الكثيرة لا تكفي لأن تكون كاتبا ومادلين لم تقتنع بحججي تلك ورائتها معقولة، لأن ذهن الكاتب يبحث عن الكمال والواقع لا يحتمل الكمال"¹⁴

وهذا يتبين لنا أن الآخر (الغريب) في رواية أرخبيل الذباب لبشير مفتي حمل صورة سلبية محضة، نتيجة لأفعاله وانطباعاته السيئة وتصرفاته غير اللائقة، حيث يرى فيه العربي المحتل والمستغل لطاقة الجزائريين، وتنتمي أحداث الرواية نهاية سيئة بفشل البراني، حيث اصطدمت أرجاء ذاته بالضياح والشعور الحاد بالقهر والإهانة والتهميش في البلد الأجنبي، لأنه تفتن أخيراً للنوايا الحقيقية للمستعمر والمحتل الذي يبقى دائماً عدواً مهما تقاربت المسافة بينهما، لذلك نجد أن الذات العربية/الجزائرية جسدت لنا العلاقة الانفصالية والصدامية القائمة بين الرجل الشرقي والمرأة الغربية في نهاية المطاف، مما تولدت لديها نظرة أو رؤية عدوانية تجاه هذا الآخر والتي يعرفها جميل حمداوي في كتابه: الأدب المقارن وفق نظرية الأنساق المتعددة، حيث "تستند الرؤية العدوانية إلى اعتبار الغير أو الآخر مخالفاً أو مقابلاً للأنثى أو الذات، وبالتالي يحاول الغير تغريب الذات وإقصائها وتهميشها بممارسة العدوان والنبد والحقد ضدها، فيصبح الغير هنا حجماً لا يطاق، لذا تنتقل العلاقة بينهما من مرحلة التعايش والسلام إلى مرحلة العدوان والصراع الجدلي، وغالباً ما تفرز لنا هذه النظرة العدائية السلبية حسب هيجل في حالة انتصار أحد منها إلى ظهور ما يسمى بجدلية السيد والعبد"¹⁵، إذ نلمس هذه الرؤية العدوانية وهذا الصراع الجدلي في قول البراني: "صرخت في وجه مادلين بالحيرة والقلق وعدم الرغبة في أن أكون ما لست عليه بالفعل..."¹⁶؛ ونفهم من كل هذا أن العلاقة بين البراني ومادلين في المتن الروائي انتقلت من مرحلة التعايش والتفاهم والسلام إلى مرحلة الصدام والعدوان والحقد، لأن البراني ضاع يقينه في كل شيء، مما جعله يعبر عن وضعه الملتبس بالصراخ.

ويعني هذا أن المجتمع العربي (الأنا الجزائرية) تآثر وناق على الإنسان الغربي الذي ينظر إليه نظرة سلبية أساسها أن الآخر هو نموذج للمستعمر والمحتل والمستغل المتغطرس الجبار الذي يستعبد الشعوب الضعيفة، ويستغلها حيفاً وجوراً وظلماً، فبلد الآخر بالنسبة له ليس هو الملجأ اللائق للإقامة، لأن الأنا الجزائرية حاولت الهروب من بلدها نتيجة العنف والدمار الذي سيطر على كيانها، علماً نجد الملاذ الآمن في ذلك البلد الأجنبي، لكن الواقع كان عكس ذلك، بل وجد الشرقي (البراني) نفسه تائهاً في شوارع إسبانيا دون أن تتحقق أحلامه التي هاجر من أجلها، مما جعله يعود إلى الماضي المؤلم، لحظات التعاسة والقلق واشتغاله في البار للهروب من واقعه المأساوي، ليعمل ساقى كؤوس من جديد يريزخ تحت وطأة غربته التي تغربه عن المكان ككل: "لقد تركت مادلين ومكتبتي وعدت إلى البار الباريسي القبيح لأعمل من جديد بارمان حقير يوزع المشروبات بيأس ويسمع لحكايات من لفظتهم الحياة بآلم..."¹⁷؛ أي أن البراني استسلم للواقع المعاش والأليم، وعاد إلى اشتغاله في مكان غير لائق ومناسب لشخصه الكريم، لأنه شعر بأن كل ما يقوم به ليس له قيمة في نظر مادلين، فقد أدرك أن هذه الأخيرة كانت سبباً في حزنه وتعاسته وتدميره، حيث أصبح لا يطيقها، لأنها لازالت تتبنى أفكار ورؤى ثقافتها، التي هي نتاج النظرة الدونية والاستعلائية للفرنسيين تجاه العرب والجزائريين طاغية في الرواية، مما جعله يفكر في العودة إلى جذوره وثقافته، إلى الجزائر معقل هويته واثرائه،

ويودع أيام التصعلك وليالي البيرات والأحزان الثقيلة، رجع إليها متفائلا رغم الأوضاع المزرية التي تعيشها البلاد إلا أنه تحدى كل الصعاب وفتح مكتبة يبيع فيها الكتب، فوجد شيئا من الطمأنينة أنسته حميم غربته ووحدته في بلده، بعدها شعر بأن كل ما يقوم به له قيمة، يقول: "فتحت أبواب المكتبة صباح يوم السبت. شعرت وأنا أفعل ذلك بالانتصار على أشياء كثيرة بداخلي وكانت روح التحدي تملأني بالنشوة والقدرة على المقاومة حتى الآخر منظر الشباب وهم يتطلعون إلى العناوين متصفحين بأيدي مرتعشة أوراق الكتب كان جميلا للغاية، يبعث على الطمأنينة وقلت لنفسني هنا كل عمل أقوم به له قيمة"¹⁸؛ إذن فالبراني أدرك في الأخير أن العودة إلى البلد الأصلي ضرورة حتمية لا بد منها، وبذلك تقطع كل خيوط الحوار والتعايش، ويزداد الصراع بين الجزائر وفرنسا.

وعليه فقد عبر مفتي عن مسألة الغيرية تبعا للموقف الأساسي الثاني عند دانييل هنري باجو وهو الرهاب، وهو الموقف الصواب، إذ تلبست روايته بالصراع والتزعة العدائية نحو الآخر، فالفرنسي لا يؤمن وليس أهلا للثقة حسب ما تعتقده الذات الجزائرية المضطهدة، أي أن الود الذي يظهره الفرنسي يبقى ظرفيا فقط، يرتبط بمدى حاجته للآخر، ويبرز مدى سعيه إلى التعايش معه من أجل ضمان مصالحه، وهذا يعني أن الثقافة الوطنية الأصلية (ثقافة الأنا) بالنسبة للكاتب متفوقة بصورة مطلقة على الواقع الثقافي الأجنبي (ثقافة الآخر) والتي يعدّها أقل مستوى، وأن العلاقة بين الأنا الجزائرية والآخر الفرنسي هي علاقة صراع وتنافر وعداء، تجلّت بوضوح في المتن الروائي الجزائري. وما يمكن ملاحظته في هذه الدراسة أن هذا النموذج الروائي يعتبر من أهم النماذج والكتابات التي نجحت في تصوير الآخر وإبراز ملامحه والحديث عنه.

خاتمة:

ولعلنا نخلص في نهاية هذه المباحثة التي اشتغلت على مقولة الغيرية في رواية أرخبيل الذباب لبشير مفتي، إلى جملة من النتائج نذكرها على النحو الآتي:

- أن مفهوما "الأنا" و"الآخر" من أهم المصطلحات التي نالت عناية كبيرة من قبل العديد من الباحثين والدارسين، لكن يصعب تحديد وضبط هذين العنصرين، ويرجع ذلك إلى التباين الحاصل بين المفكرين والفلاسفة فلكل آرائه وتصوراته، مما يستعصى علينا تقديم تعريف دقيق لهذين المصطلحين.
- أن موضوع الغيرية يدخل ضمن مباحث الصورولوجيا أو الصورية (Imagologie) التي تعتبر من أهم فروع الأدب المقارن، فهي تهدف إلى دراسة صورة البلد الأجنبي في أعمال أدبية لدى شعوب وبلدان أخرى، وذلك لإزالة الغموض واللبس الذي يعتري الصور الخاطئة التي تحملها المجتمعات عن غيرها نتيجة سوء الفهم.
- اعتمدنا في هذه الدراسة على أبرز الأعمال الإبداعية للأديب الجزائري بشير مفتي والمتمثلة في رواية أرخبيل الذباب، حيث نسج فيها مفتي نموذجا مصغرا لصورة الآخر التي حملت الجانب السلبي الذي طغى عليها، وقد انحصر في الفرنسي على وجه التحديد، بوصفه آخرًا محتلا ومستغلا ومستعمرا للأنا الجزائرية.

- عبر مفتي عن مسألة الغيرية تبعا للموقف الأساسي الثاني عند دانييل هنري باجو وهو الرهاب، وهو الموقف الصواب الذي يتناسب والمتن الروائي، فالثقافة العربية متفوقة حتما على ثقافة الأجنبي، مما يوحى إلى العلاقة القائمة بين الأنا والآخر التي يحكمها الصراع والعداء والنبذ.

- جاءت صورة الآخر الفرنسي في رواية أرخبيل الذباب كشأن على أن فكرة التعايش الدائم والمستمر مع العدو هي فكرة واهمة ومستحيلة، لأنه يبقى ظلما ومستبدا مما تقاربت المسافة بينه وبين الإنسان العربي.

- ركزت أرخبيل الذباب على كشف الحيل التي يلجأ لها الفرنسي من أجل الحصول على مبتغاه، كما بينت الصفات التي تطغى على طباعه في تعاملاته مع الآخرين، وقد ارتبطت صورته في الرواية بالطابع النمطي التقليدي، وتمثلت في المرأة الفرنسية التي قدمت في زي المرأة اللعوبة، المستغلة، المخادعة، والانتهازية.

ملحق:

التعريف بالروائي: بشير مفتي

روائي جزائري من الجزائر العاصمة، متخرج من كلية اللغة والأدب العربي بجامعة الجزائر، أصدر عدة أعمال روائية، عمل في الصحافة، كما أشرف على ملحق الأثر لجريدة الجزائر نيوز، إلى جانب هذا عمل مراسلا من الجزائر لجريدة الحياة اللندنية، وهو أحد المشرفين على منشورات الاختلاف بالجزائر.

نتاجه الروائي:

- 1- المراسم والجنائز 1998 .
 - 2- أرخبيل الذباب 2000.
 - 3- شاهد العتمة 2002.
 - 4- بخور السراب 2004 .
 - 5- أشجار القيامة 2006.
 - 6- خرائط لشهوة الليل 2008 .
 - 7- دمية النار 2010.
 - 8- أشباح المدينة المقتولة 2012.
 - 9- غرفة الذكريات 2014 .
 - 10- لعبة السعادة أو الحياة القصيرة لمراد زاهر 2016.
 - 11- وحيدا في الليل 2019 .
 - 12- اختلاط المواسم أو ولجة القتل الكبرى 2019.
- له نتاجات أخرى:
- 1- أمطار الليل (قصص قصيرة) 1992 .

- 2- الظل والغياب(قصص) 1995.
- 3- شتاء لكل الأزمنة(قصص) 2004 .
- 4- سيرة طائر الليل- مقالات وشهادات 2015.
- 5- والأرض تحترق بالتجوم(نصوص) 2015.

هوامش:

- ¹. أحمد ياسين السلياني: 2009، التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر المعاصر، ط1، سوريا- دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، ص: 92.
 - *يوهان غوتليب فيشته(1762-1814): فيلسوف ألماني، واحد من أبرز مؤسسي الحركة الفلسفية المعروفة بالمثالية الألمانية.
 - ². عمرو عبد العلي علام: 2005، الأنا والآخر(الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر)، ط1، القاهرة- دار العلوم، ص: 13.
 - ³. ميجان الرويلي وسعد البازعي: 2002، دليل الناقد الأدبي(إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا)، ط3، لبنان- المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، ص: 22.
 - ⁴. ينظر، سعيد حسون حسين: (2016)، صورة الآخر في الرواية العراقية بعد عام 2003(دراسة في الأدب المقارن)، مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع، جامعة بغداد، العدد6، ص: 48.
 - ⁵. محمد أنقار: 1994، بناء الصورة في الرواية الاستعمارية(صورة المغرب في الرواية الإسبانية)، ط1، تطوان- مكتبة الإدريسي للنشر والتوزيع، ص: 15.
 - ⁶. سعد البازعي: 1999، مقارنة الآخر(مقارنات أدبية)، ط1، مصر- دار الشروق، ص: 11-12.
 - ⁷. ينظر، العيد جلولي: (2018)، الصورة الروائية في إبداعات الحبيب السائح(رواية تلك المحبة أنموذجا)، مجلة الأثر، جامعة ورقلة، العدد30، ص: 101.
 - ⁸. ينظر، العيد جلولي: الصورة الروائية في إبداعات الحبيب السائح(رواية تلك المحبة أنموذجا)، ص: 102.
- **الموقف الأساسي الأول: الهوس (La Manie):** وذلك حين ينظر الكاتب أو الجماعة إلى الواقع الأجنبي، بوصفه النموذج المتفوق، في حين يعكس شعورا بالدونية تجاه ثقافته الوطنية (الأصلية) ويعتبرها أقل مستوى-أي تفوق ثقافة الآخر على ثقافة الأنا- وتنتشر هذه الرؤية في الكثير من آداب الشعوب التي عايشة تجربة الاستعمار، إذ يُبدي بعض كتابها حنينًا لا شعوريا للفترة الاستعمارية، يعملون بمقتضاها على تشويه هذه الفترة بشكل إيجابي، وذلك عن طريق إبراز تصورات مثالية متوهمة عن الآخر.
- **الموقف الأساسي الثاني: الرهاب (La phobie):** يعتبر التحلي النقيض للموقف السابق، إذ ينظر الكاتب أو الجماعة في هذه الحالة إلى الواقع الأجنبي بوصفه النموذج المتدني، في حين يعكس شعورا بالتفوق تجاه ثقافته الوطنية (الأصلية)-أي تفوق ثقافة الأنا على ثقافة الآخر تفوقا مطلقا- فتتشكل بذلك صورة سلبية مشوهة لهذا الآخر انطلاقا من وهم التفوق العرقي أو الديني أو الحضاري أو الإيديولوجي، ويكثر هذا النوع من المواقف في بعض الكتابات الإستشراقية التي نشأت في ظل منظومة فكرية تركز الهيمنة بحكم ارتباطها بالمركزية الغربية الأوروبية، فكانت بذلك خطابات تبريرية للمشروع الاستعماري.

**** الموقف الأساسي الثالث: التسامح (La philie):** جوهره فكرة الاعتراف بالآخر والحوار معه على أساس من الندية، حيث تزول الإيديولوجيا والأحكام المسبقة التي تُؤطر النظرة إلى الآخر (الغير)، ففي هذه الحالة يُحكم على الواقع الأجنبي (ثقافة الآخر) بصورة إيجابية مشرقة مكملة للثقافة الأصلية (ثقافة الأنا)، فإذا كان الرهاب يفترض إلغاء الآخر وموته، فإن التسامح يحاول الاعتراف به والتعايش معه، وفي هذه الحالة لا يمكن للآخر أن يكون متفوقا ولا متدنيا، ولكنه متميز ولا يمكن الاستغناء عنه، وتستند هذه الرؤية إلى خلفية أخلاقية تُعلي من القيم الإنسانية وتُعزز التقارب والتكامل بين الأمم. (ينظر، في كتاب: دانييل هنري باجو: 1997، الأدب العام والمقارن، تر: غسان السيد، (د.ط)، دمشق- منشورات اتحاد الكتاب العرب، ص: 107-108-109).

- ⁹. يوسف بكار و خليل الشيخ: 1996، الأدب المقارن، ط1، الأردن- منشورات جامعة القدس المفتوحة، ص: 222.
- ¹⁰. بشير مفتي: 2010، أرخبيل الذباب، ط2، الجزائر- الدار العربية للعلوم ناشرون منشورات الاختلاف، ص: 120.
- ¹¹. بشير مفتي: أرخبيل الذباب، ص: 120-121.
- ¹². المصدر نفسه، ص: 121.
- ¹³. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹⁴. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹⁵. جميل حمداوي: 2020، الأدب المقارن وفق نظرية الأنساق المتعددة، ط1، المملكة المغربية- دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني، ص: 178-179.
- ¹⁶. بشير مفتي: أرخبيل الذباب، ص: 121-122.
- ¹⁷. المصدر نفسه، ص: 122.
- ¹⁸. المصدر نفسه، ص: 123.

قائمة المراجع:

1- المصادر:

- 1- بشير مفتي: 2010، أرخبيل الذباب، ط2، الجزائر- الدار العربية للعلوم ناشرون منشورات الاختلاف.

2- المراجع بالعربية:

- 1- أحمد ياسين السليمان: 2009، التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر المعاصر، ط1، سوريا- دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع.
- 2- جميل حمداوي: 2020، الأدب المقارن وفق نظرية الأنساق المتعددة، ط1، المملكة المغربية- دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني.
- 3- سعد البازعي: 1999، مقارنة الآخر (مقارنات أدبية)، ط1، مصر- دار الشروق.
- 8- عمرو عبد العلي علام: 2005، الأنا والآخر (الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر)، ط1، القاهرة- دار العلوم.

- 9- محمد أنقار: 1994، بناء الصورة في الرواية الاستعارية (صورة المغرب في الرواية الإسبانية)، ط1، تطوان- مكتبة الإدريسي للنشر والتوزيع.
- 10- ميجان الرويلي وسعد البازعي: 2002، دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا)، ط3، لبنان- المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع.
- 11- يوسف بكار و خليل الشيخ: 1996، الأدب المقارن، ط1، الأردن - منشورات جامعة القدس المفتوحة.
- 3- المراجع المترجمة:
- 1- دانييل هنري باجو: 1997، الأدب العام والمقارن، تر: غسان السيد، (د.ط)، دمشق - منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- 4- المقالات:
- 1- سعيد حسون حسين: (2016)، صورة الآخر في الرواية العراقية بعد عام 2003 (دراسة في الأدب المقارن)، مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع، جامعة بغداد، العدد6، ص: 46-65.
- 2- العيد جلولي: (2018)، الصورة الروائية في إبداعات الحبيب الشائع (رواية تلك المحبة أمودجا)، مجلة الأثر، جامعة ورقلة، العدد30، ص: 99-108.